مجلد المنار الجزء الثاني — المجلد الثالث

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

إنما يخشى الله من عباده العلماء

قال عليه الصلاة والسلام ان للاسلام صوى و«منارا» كمنار الطريق

مصر في يوم الاثنين ١١ ذي القعدة سنة ١٣١٧ * ١٢ مارث (آذار) سنة ١٩٠٠

الجنسية والديانة الاسلامية

من مقالات «العروة الوثقى» خير ما كتبه علماء الاسلام في حكمة الدين الاسلامي

ان استقراء حال الافراد من كل أمة واستطلاع أهوائها يثبت لجلي النظار ودقيقه وجود تعصب للجنس ونعرة عليه عند الاغلب منهم وان المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر بنيه ويغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ولا بحث في علة هذا الوجدان حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة ان التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية الا انه يبعد ظنهم ما نراه في حال طفل ولد في أمة من الامم ثم نقل قبل التمييز الى أرض أمة أخرى وربي فيها الى ان عقل ولم يذكر له مولده فانا لا نرى في طبعه ميلا اليه بل يكون خالي الذهن من قبله ويكون مع سائر الاقطار سواء بل ربما كان آلف لمرباه وأميل اليه والطبيعي لا يتغير. ولهذا لا نذهب الى انه طبيعي ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الانفس ترسمها على ألواحها الضرورات فان الانسان في أي أرض له حاجات جمة وفي أفراده

ميل الى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة اذا لم يصبغوا بتربية ذكية . وسمة المطمع اذا صحبها اقتدار يطبعها على العدوان فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقاباطوالا الى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا الى الاجناس فتوزعوا أمما كالهندي والانكليزي والروسي والتركماني ونحو ذلك ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادرا على صيانة مكانه وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر ثم تجاوزوا في ذلك حد الضرورة كما هي عادة الانسان في أطواره فذهبوا الى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علما بانه لا بد ان يكون جائرا اذا حكم ولئن عدل فان في قبول حكمه ذلا تحس به النفس وينفعل له القلب فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تبع هو الضرورة في الزوال كما تبعها في الحدوث بلاريب . وتبطل الضرورة بالاعتقاد على حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضاءل لعظمته القدر وتخضع لسلطته النفوس بالطبع وتكون بالنسبة اليه متساوية الاقدام وهو مبدأ الكل وقهار السموات والارض ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه مساهما للكافة في الاستكانة والرضوخ لاحكام أحكم الحاكمين فاذا أذعنت الانفس بوجود الحاكم الاعلى وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم في النظام لما أمر به اطمأنت في حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة اليها فمحي أثرها من النفوس والحكم لله العلي الكبير

هذا هو السر في اعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات ماعدا عصبتهم الاسلامية

فان المتدين بالدين الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ويلتفت عن الرابطة الخاصة الى العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد [١] لان الدين الاسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الادنى الى عالم أعلى بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد وبيان الحقوق كليها وجزئيها وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات واقامة الحدود وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها الا من أشد الناس خضوعاً لها ولن ينالها بوراثة ولا امتياز في جنس أو قبيلة أو قوة بدنية أو ثروة مالية وانما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضاء الامة. فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الالهية التي لا تميز بين جنس وجنس واجتماع آراء الامة وليس للوازع أدنى امتياز عنهم الا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها

وكل افتخار تكسبه الانساب وكل امتياز تفيده الاحساب لم يجعل له الشارع أثراً في وقاية الحقوق وحماية الارواح والاموال والاعراض بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها ملوم فقد قال صلى الله عليه وسلم ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية

«١» ولكن قد بلينا في هذا الزمان بقوم لم يتربوا تربية اسلامية فاندفعوا بالوساوس الاوروبية الى قطع العلاقة العامة الاعتقادية وتعليم الناس التعصب لوطنهم فقط ولا وجود لهم الا في مصر ويسمون أنفسهم الوطنيين ونحمد الله ان عددهم قليل والا لالقوا العداوة والبغضاء بين مسلمي مصر وسائر المسلمين

والاحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى (اتباع الشريعة) «ان أكرمكم عند الله اتقاكم» : ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الازمان على اختلاف الاجيال من لا شرف له في جنسه ولا امتياز له في قبيله ولا ورث الملك عن آبائه ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه وما رفعه الى منصة الحكم الا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه

وان بسطة ملك الوازعين في المسلمين كان يسديها اليهم على حسب امتثالهم للاحكام الالهية واهتدائهم بهديها وتجردهم عن الاعتلاء الشخصي وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في ابهة ورفاهة معيشة وان يستأثر على المحكومين بحظ زائد رجعت الاجناس الى تعصبها ووقع الاختلاف وانقبضت سلطة ذلك الوازع

هذا ما أرشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الاجناس وانما ينظرون الى جامعة الدين لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي والفارسي يقبل سيادة العربي والهندي يذعن لرآسة الافغاني ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض . وان المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل الى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبها. نعم اذا نبا في سيره عنها وجار في حكمه عما نصت عليه وطلب الاثرة بما ليس له من حقه انصدعت منه القلوب عن محبته الانفس وأصبح وان كان وطنيا فيهم أشنع حالا من الاجنبي عنهم

ان المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الاديان بالتأثر والاسف عند

ما يسمون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات الى جنسها وقبيلها ولو ان حاكما صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الاوامر الالهية وثابر على رعايتها وأخذ الدهماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة لامكنه ان يحوز بسطة في الملك وعظمة في السلطان وان ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار المعمورة بارباب هذا الدين ولا يتجشم في ذلك أتعابا ولا يحتاج الى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية . . . ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية القويمة ومن سيره هذه تبعث القوة وتتجدد لوازم المنعة . أكرر عليك القول بان السبب هو أن الدين الاسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الاديان الى الآخرة فقط ولكنه مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم ومايكسبهم السعادة في الدنيا والتنعيم في الآخرة وهو المعبر عنه في الاصطلاح الشرعي بسعادة الدارين وجاء بالمساواة في أحكامه بين الاجناس المتباينة والامم المختلفة

ابيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب أن بعضاً من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية فيلجأون للدخول تحت سلطة أجنبية على ان الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطريق فمثلهم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى اذا أحس بالالم رجع واسترجع . وان بعض ما يطرأ على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق انما يكون منشأه قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصول القويمة التي بنيت

عليها الديانة الاسلامية وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الاقدمين فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد مما يكون ضررهما بالسلطة العليا فاذا رجع الوازعون في الاسلام الى قواعد شرعهم وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض قليل من الزمان الا وقد آتاهم الله بسطة في الملك وألحقهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين وفقنا الله للسداد وهدانا طريق الرشاد

(المنار) لقد وقعت مقالة التعصب التي نشرناها في الجزء الماضي أحسن موقع وأجله في نفوس قارئيها من فضلاء المصريين ولا ريب ان سيكون لهذه ما كان لتلك فان الكمل من ينبوع واحد وهو علم استاذنا الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية محرر جريدة العروة الوثقى ومن هاتين المقالتين يعرف القراء الغر والحكمة فيما اشتهر عن الاستاذ من تخطئة اللاغطين بالوطنية في مصر والاعراض عنهم لجهلهم بما ينفع الامة ويضرها ولكن زعماء الوطنية يوهمون الناس بأن كل من يسفّه أحلامهم فهو ميال الى مسالمة المحتلين أو مصانعتهم وقد أساء أغرار المصريين الظن بكثير من الفضلاء لوساوسهم ثم انجلت الحقيقة لاكثرهم وستنجلي الآخرين ان شاء الله تعالى

﴿ مقاومة رجال الدين لاجل الاصلاح ﴾

وصى الله تعالى جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ولكن رجال الدين من كل أمة فرقوا دينهم وكانوا شيعا ومذاهب يضلل بعضها بعضا فكان هذا التفريق مسقطاً للدين من نظر الحكماء والفلاسفة فقام رجال الدين يناصبون أهل العلم العقلي والحكمة العداء حتى كانت الامم قبل الاسلام تعتقد ان الدين والعقل ضدان